الأسرة الشاعرة

بين الوراثة والاكتساب

● د . محمود جبر الربداوي ●

في الأدب العربي ظاهرة يكاد ينفرد بها من بين الآداب العالمية الأخرى فيما أعلم(١) تلكم الظاهرة هي ظاهرة (الأسر الشاعرة) ، ونعني بالأسر الشاعرة تلك الأسر التي ينبغ فيها شاعر متميز ثم لا يقف جيل الشعر عنده ، وإنما يتوالى في نسله وذراريه ، ويتوارث ذووه من أبناء وبنات وأخوة وأخوات موهبة الشعر هذه ، ثم تتواصل هذه الموهبة عبر الأحفاد وأبناء الأحفاد ، لتصل أحياناً إلى أحفاد الأحفاد ، ولو كانت هذه الظاهرة مقصورة على أسرة بعينها أو أسرتين لما غدت ظاهرة يجدر الوقوف عندها ، ولكنَّها من التوفر والشيوع بمكان كبير ، توفراً يجعلها غير قاصرة على عصر واحد فقط ، وإنما تتجاوز العصر الأدبي إلى عصرين وربما إلى ثلاثة ، إذ ينبغ الشاعر ، عميد الأسرة ، في العصر الجاهلي مثلاً ، ويتوالى بنوه وأحفاده في عصر صدر الإسلام ، وقد يوغل هذا التواصل فيعبر العصر الأموي إلى العصر العباسي ، هذا من الناحية الزمنية أو (العصرية) إن صحت التسمية ، وأمَّا إذا أمعنا النظر في البعد الأفقي لهذه الظاهرة وجدناها ، في العصر الواحد ، غير مقصورة على أسرة واحدة ، وإنما هناك أسر كثيرة متعددة ، في العصر الواحد ، أو في البيئة الواحدة ، وهذا ما جعل هذه الظاهرة تخرج من حيِّز الملاحظة الأدبية ، وترتقي إلى مستوى الظاهرة الأدبية التي تسمح بالدراسة المتعمقة المتميزة بالغنى والعمق والشمول .

وإنني لشديد الاعتقاد بأن المكان الطبيعي لدراسة هذه الظاهرة إنما يجب أن يكون في ظل الدراسات التي عنيت بدراسة شعر القبائل ، وطبيعي أن يكون المهتمون بشعر قبيلة معينة أقدر على تلمس خصائص أسرة ما تنتمي إلى قبيلة معينة ، ففي ظل انتماء هذه الأسرة لتلك القبيلة يتبين الباحث التفاعلات الاجتماعية والفكرية واللغوية بين القبيلة بوصفها مؤسسة « اجتماعية » كبيرة ، والأسرة بوصفها وحدة « صغيرة » من وحدات هذه المؤسسة الاجتماعية الكبرى ، ولعله من نافلة القول أن نعيد إلى الأذهان صورة الفخر الذي كان يتملك القبيلة بأسرها عندما ينبغ فيها شاعر ، وصور التعبير عن هذا الفخر والاعتزاز بإيلام الولائم ، وما يصاحبه من مظاهر الفرح والغبطة .

ولكن الدراسات التي عنيت بشعر القبائل كانت تنطلق من دراسة الشاعر بوصفه الوحدة الصغرى في القبيلة التي هي موضوع الدراسة ، وتنتهي إلى الصورة الشمولية بدراسة خصائص القبيلة كلها بصفتها وحدة كبرى لها مجموعة خصائص الوحدات الصغرى الداخلة فيها ، ولكنها ، في إطار هذا المرور من الوحدة الصغرى : الشاعر ، إلى الوحدة الكبرى : القبيلة ، تغفل الوقوف بالدراسة عند الوحدة الوسطى التي هي الأسرة ، ولهذا ضاعت دراسة الأسر الشاعرة في ثنايا النظرات الجزئية أو الكلية ، فدرست الأسرة في إطار شعراء مستقلين ، كأن لم يربطهم رابط بأقاربهم الأدنين ، أو أنهم درسوا بصفتهم ينتمون إلى هذه المجموعة الكبيرة المعبر عنها بالقبيلة .

ومن المسلم به أن (الشعر القبلي) قد حظي باهتمام الدارسين منذ القديم حتى هذا الزمن الحديث ، ولعل أقدم ملاحظة عن جمع شعر قبيلة معينة في كتاب ما نلاحظه في شعر (بشر ابن أبي خازم) الذي قرأ شيئاً في كتاب (بني تميم) إذ يقول :

قرأنا في (كتاب بني تميم) :   أحق الخيل بالركض المعار

وإن فاتنا الاطلاع على هذا الكتاب فإنه لم يفتنا الاطلاع على كتب أشعار القبائل التي ألفها (أبو سعيد السكري) والتي بلغت ـ كما يقول ابن النديم في الفهرست(٢) ـ خمسة وعشرين ديواناً . في أيدي الناس منها (ديوان الهذليين) ، أما الآمدي فقد عدد لنا أسماء ستين ديواناً من دواوين أشعار القبائل(٣) ، واقتبس هو منها ، وقد سبقه أبو تمام إلى تأليف كتابين في هذا الاتجاه القبلي أحدهما اسمه (الاختيار القبائلي الأكبر) والثاني (الاختيار القبائلي)(٤) هذا بالإضافة إلى مجموعة غير قليلة من العلماء في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، الذي عنوا عناية شديدة بجمع أشعار القبائل وشرحها والتعليق عليها ، وفي زمننا الحديث يطالع الباحث مجموعة طيبة من الدراسات لأشعار القبائل دراسة أكاديمية جادة أضافت الكثير من المعرفة عن الشعر القبلي وخصائصه(٥) . ولكن يظل الشعر في إطار الأسرة الصغيرة غير ذي بال عند هؤلاء الدارسين . وعلى الرغم من أن كتب (الشعر والشعراء)

وكتب تاريخ الأدب العربي تحفل بأسماء الكثيرين من الشعراء بعضهم المشهورون وبعضهم المغمورون ممن ينتمي إلى أسرة واحدة ، إلا أن هذه الأسماء ترد في كثير من الأحيان مفككة لا تلمح فيها رابطة الأسرة ، ولا تكتشف هذه الرابطة إلا بقسط غير قليل من الجهد المقتصد ، والتتبع الهادف الذي قد يكون مضنياً في بعض الأحيان . صحيح أن المصادفة قد تلعب دوراً في كشف صلة النسب القريبة بين شاعر وآخر ، ولكن المصادفة وحدها ليست بكافية لتقديم المادة الأولية المطلوبة لإقامة الدرس والبحث ، فلابد ، والحالة هذه ، من التتبع والاستقصاء والاستعانة بالأخبار الرافدة والمعلومات الموضحة التي تصل بالباحث إلى درجة اليقين واستنباط ملاحظاته وتدوينها بقدر غير قليل من الثقة .

ومما يؤكد على أن هذه الظاهرة ، أقصد ظاهرة الأسر الشاعرة ، مما ينفرد به الأدب العربي ، وقد لا يشاركه فيها أدب آخر هو شدة عناية العرب بالأنساب ، الأنساب على نطاق الأسرة الصغيرة ، والأنساب على نطاق القبيلة الكبيرة ، عناية تجاوزت حد القصد إلى حد المبالغة والغلو ، وأحياناً قليلة إلى حد التلفيق ، لأن العربي ، شاعراً كان أم غير شاعر ، يأنف أن يظل خارج إطار الوعاء الاجتماعي الذي هو القبيلة ، فلهذا يلتمس كل الأسباب والوسائل التي تبلغه الانتماء لأي تجمع صغير ، هو جزء من تجمع أكبر منه فتتألف الأفخاذ والبطون والفروع وتنتهي إلى الأصول وكبريات القبائل ، وهذا الانتماء يضمن له بالإضافة إلى الأمن الاعتزاز والمناخ الذي يسمح بتفتح الشاعرية والعناية الجماعية بها . ولهذا قلت أن الأجدر بدراسة هذا الموضوع هم المتخصصون بدراسة أشعار القبائل لأن دراسة الأسر الشاعرة هي ، في ذاتها ، دراسة لأشعار القبائل في أصغر وحداتها الاجتماعية التي هي الأسرة .

رب معترض يعترض علينا ، هازلاً أو جاداً ، فيقول : لماذا تحاول أن تثبت أن أسرة ما أو قبيلة نبغ أفرادها في قول الشعر ، فتوارثوه وتتابعوا في قرضه ، ونحن نعلم أن الأمة العربية وليست الأسرة العربية أو القبيلة العربية ، أمة شعر ، لا يضاهيها في دلك أمة أخرى ، حتى ليكاد يكون كل عربي شاعراً ، فإذا كان العرق العربي كله يتمتع بالشاعرية ، فمن المسلم به أن جميع أفراده سواء كانوا منتسبين إلى أسرة صغيرة أم كبيرة يحملون في موروثاتهم العرقية قدراً من الشاعرية التي تبرز إلى حيز الوجود عندما تتوفر لها الشروط الملائمة . وهذا الاعتراض في ظاهره صحيح ، ولكن أن يزعم زاعم أن كل فرد من هذه الأمة العربية شاعر بالفطرة ، مستمد حكمه هذا من الكثرة الكاثرة من الشعراء الذين أنجبتهم الأمة العربية على مر الدهور ، فهذا اعتراض مرفوض ، ذلك أن هذه (الكثرة الكاثرة) من شعراء العربية الذين لمحناهم على مر العصور لا يسوغون أن يكون كل العرب شعراء ، ويبطلون نظرية البحث عن الشعر المتوارث في نطاق الأسرة ، لأن نسبة الشعراء في كل جيل تكاد لا تذكر أمام نسبة السواد الأعظم من عامة الناس ومن غير الشعراء منهم ، فالشعراء الذين أحصتهم كتب (الشعر والشعراء) وذكرتهم كتب تاريخ الأدب عبر عصور متعددة يظلون قلة أمام ذلك السواد الأعظم من الناس الذين

لا يتمتعون بميزة (الشاعرية) ، ولذلك يظل البحث عن هذه (الميزة) ومتوارثيها في إطار الأسرة الواحدة له ما يسوغه ، ويحمس الباحث على الولوج فيه .

يقع الدارس للعصر الجاهلي على مجموعات كثيرة من الشعراء ، تربط بين بعضهم روابط الأسرة كقرابة الدم أو قرابة النسب كالأخوة والبنوة والخؤولة والعمومة ، مثل ذلك ما نجده في المجموعة التي فيها (طرفة بن العبد) وأخته (الخرنق) ولست أدري من أين ورثا موهبة الشعر أمن خالهما (المتلمس) أم من عمهما (المرقش الأصغر) الذي هو بدوره ابن أخي الشاعر (المرقش الأكبر) وهذا الأخير عم (عمرو بن قميئة) الشاعر المشهور ، وكل هؤلاء مجموعة من الشعراء ينحدرون من آباء شعراء ، وينحدر منهم أبناء شعراء ، غير أن تشابك نسب هذه المجموعة يوقعنا في الاضطراب ، فلنأخذ مجموعة أخرى من شعراء العصر الجاهلي تساعدنا على وضوح الرؤية أكثر من المجموعة السابقة ، ولتكن المجموعة (الهذلية) التي على رأسها الشاعر المشهور (أبو خراش الهذلي) ، وقد عدّه الأصبهاني من فحول الشعراء الجاهليين وإن كان قد أدرك الإسلام فأسلم فحسن إسلامه ، يشاركه في الشاعرية أخوه (أبو جندب الهذلي) وهو أحد الفرسان الموهوبين والشعراء سليطي اللسان في الجاهلية والإسلام ، يشارك هذين الأخوين أخ ثالث لهما اسمه (الابحّ بن مرة الهذلي) ترجمت أشعاره إلى الألمانية مع أشعار أخويه أبي جندب وأبي خراش ، ومالي أعدد هذه الأسرة واحداً واحداً ،ففي كتاب (تاريخ التراث العربي) لفؤاد سزكين يعدد تسعة من أخوة أبي خراش ويصفهم بأنهم كلهم شعراء على تفاوت في نسبة الشاعرية لدى كل واحد منهم(٦) . فالسؤال الذي ينشأ في الذهن الآن : لماذا يوضع الشعر في هؤلاء الأخوة التسعة ؟ أهناك ميراث واحد اقتسموه فنال كل واحد منهم نصيباً ؟ قد يقول قائل إن موهبة قول الشعر ليست مقصورة على هؤلاء الأخوة من هذه القبيلة ، فالذي نعرفه أن شعراء هذيل يعدون بالعشرات ، بعضهم يمكن أن يندرج في النظام الأسري المشار إليه ، ولكن بعضهم الآخر لا يخضع لهذا النظام ، وإنما هم ينتمون لقبيلة شاعرة ، لا لأسرة شاعرة وهذا القول صحيح أيضاً ، ولكن أن يكثر الشعراء في قبيلة واحدة لا يلغي وجهة النظر التي تذهب إلى إمكانية تكاثف هؤلاء الشعراء في داخل الأسرة الواحدة بفعل وراثة المواهب الفنية ، ومن الطريف أن بعض أفراد الأسرة الواحدة لا يرثون الموهبة الفنية ، بل يرثون المنزع النفسي الكامن وراء الموهبة الفنية ، فهذا أبو جندب الهذلي كان شاعراً سليط اللسان في الجاهلية والإسلام ، وكان أخوه الأبح بن مرة شاعراً هجَّاءً ذا نزعة عدوانية .

ولعل من الأمثلة الأكثر دلالة على ما نقول : أسرة الشاعر الجاهلي المشهور زهير بن أبي سلمى ، فوالده (أبو سلمى) المسمى (ربيعة ابن رياح المزني) كان شاعراً ، وابنتاه سلمى والخنساء كانتا شاعرتين . وابنته سلمى هذه ، تزوجت رجلاً اسمه (عمرو) فولدت له مجموعة أولاد كانوا كلهم شعراء . ولنترك فرع سلمى لنتابع تسلسل الشعراء في فرع أخيها زهير ، فمعلوم أن زهيراً تزوج امرأتين

الأولى (أم أوفى) وهذه لم تترك عقباً ، والثانية (كبشة بنت عمار) التي ولدت لزهير ثلاثة أولاد : بجير وسالم وكعب ، وكل الناس يعرفون أن (كعب بن زهير) شاعر ، وكان أخوه (بجير ابن زهير) شاعراً أيضاً ، وهو الذي أسلم قبل كعب وحض أخاه كعباً على الإسلام وقد أرسل له كعب رسالة قال فيها :

ألا أبلغا عني بجيراً رسالة   فهل لك فيما قلت في الخيف ، هل لكا ؟
شربت مع المأمون كأسا روية   فأنهلك المأمون منها وعلكا
وخالفت أسباب الهدى وتبعته   على أي شيء ويب غيرك دلكا
على خلق لم تلف أما ولا أبا   عليه ، ولم تدرك عليه أخا لكا

فأجابه بجير :

من مبلغ كعبا ، فهل لك في التي   تلوم عليها باطلاً ، وهي أحزم
إلى الله (لا العزى ولا اللات) وحده   فتنجو ، إذا كان النجاء ، وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت   من النار إلاَّ طاهر القلب مسلم
فدين زهير ، وهو لا شيء دينه   ودين أبي سلمى عليَّ محرم

وقصة قدوم كعب على الرسول (ﷺ) وإسلامه وإنشاده قصيدته (البردة) بين يدية استفاضت في الحديث عنها كتب الأدب .

وإذا أحجمنا الآن عن حديث الشعر ، ومضينا إلى ما يهمنا من تتابع الشعر في نسل زهير وابنه كعب ألفينا كعباً يخلف ولدين : ذكراً وأنثى ، الذكر منهما اسمه (عقبة بن كعب) وهو المشهور في تاريخ الأدب بلقبه (المضرَّب) ، وهو الذي تُنسب إليه الأبيات الحائية(٧) التي تداولتها كتب النقد ، ومنها الأبيات :

ومازلت ترجو نفع سلمى وودها   وتبعد ، حتى أبيض منك المسائح
وحتى رأيت الشخص يزداد مثله   إليه ، وحتى نصف رأسي واضح
علا حاجبيّ الشيب ، حتى كأنه   ظباء جرت منها سنيح وبارح
ألا ليت سلمى كلما حان ذكرها   تبلغها عني الرياح اللوافح
وهزة أظعان عليهن بهجة   طلبت ، وريعان الصبابي جامح
فلما قضينا من منىً كل حاجة   ومسَّح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا   ولا ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الحديث بيننا   وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

وعقبة بن زهير خلّف أولاداً ثلاثة : عبد الرحمن وضرغاما والعوام ، وعبد الرحمن هو والد الشاعر (بشير بن عبد الرحمن) أما (العوام) فهو شاعر رقيق ، من شعره الأبيات الغزلية المشهورة(٨) .

وخبرت ليلى بالعراق مريضة　　فأقبلت من مصر إليها أعودها
فوالله ما أدري إذا أنا زرتها　　أأبرئها من دائها أم أزيدها

وقفت عند هذه الأسرة أطول من غيرها لاعتبارات كثيرة ، منها : أن هذه الأسرة توارث الشعر فيها كابر عن كابر ، سرى الإرث الشعري من الآباء إلى الأبناء ، ثم إلى الأحفاد ، وتوالى إلى أحفاد الأحفاد ، بدءاً من (ربيعة بن رياح) الجد الأكبر ، الذي عاش هو وابنه زهير في العصر الجاهلي ، وانتهاء بـ (بشير بن عبد الرحمن) و(ابن ميادة) حفيد (سلمى بنت كعب) اللذين أدركا العصر العباسي ، فهي سلسلة تطاولت حتى اخترقت عدة عصور أدبية ، ولعله لهذا الاعتبار قال ابن قتيبة : « ويقال إنه لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير ، وفي الإسلام ما اتصل في ولد جرير »(٩) . فهذه الشهادة من ابن قتيبة دفعتني إلى استقصاء أعلام هذه السلسلة . وثمة أمر آخر جعلني اهتم بهذه الأسرة وأقف عندها طويلاً ، على الرغم من أن بعض أعضاء هذه الأسرة عاش في الحقبة الجاهلية كزهير الشاعر الجاهلي الذي كان أبوه ربيعة شاعراً جاهلياً أيضاً ، وخاله بشامة بن الغدير من فحول الشعراء الجاهليين ، أقول على الرغم من أن هؤلاء جاهليون ، وقالوا شعراً كثيراً في الجاهلية ، وهناك نظرية قديمة تذهب إلى أن كثيراً من الشعر الجاهلي منحول ، وربما تطرفت هذه النظرية فزعمت أن بعض الشعراء الجاهليين ليس لهم وجود في الحقيقة ، وإنما هم أشخاص متخيلون متوهمون نسبت إليهم أشعار وألصقت بهم لأسباب واعتبارات استفاضت في ذكرها كتب الدراسات الأدبية ، ونادى بها بعض المستشرقين وبعض الدارسين من العرب ، ولكن هذه التهمة لا يمكن أن توجه إلى أعضاء هذه الأسرة ، لأن كل واحد كان ـ في الغالب ـ راوية لأبيه قبل أن يصبح شاعراً مستحصد الشاعرية ، فكون هذا الشعر الجاهلي انحدر إلينا رواية لابن عن أبيه ، وهي رواية موثوقة ، حتى وصل إلى عصر التدوين ، فالشعر المروي بهذه الطريقة شعر موثق إلى درجة كبيرة من الثقة ، ويترتب على هذه الثقة أننا نستطيع أن نستخلص خصائص الشعر وميزاته بقدر غير قليل من الطمأنينة ومجانبة الحذر . كما يترتب على هذا أننا ، بفضل ما استخلصناه من خصائص فنية متوفرة متواترة في شعر الأسرة الواحدة ، نتيجة عنصر الوراثة وعنصر الاكتساب بالرواية ، نستطيع أن نحدد ملامح مدارس فنية شعرية ، لها خصائص مميزة وسمات واضحة ، كأن تكون هناك مدرسة (زهيرية) ابتدع الجد الأول خصائصها وأعطاها طابع سماتها المعروفة بتقليب وجهات النظر في صنيعه الفني ، ثم انحدرت إلى أولاده وأحفاده ، ولا أقول ـ هنا ـ بفعل الوراثة ، وإنما بفعل الرواية ، وهو ما سأتحدث عنه بعد قليل ، وبهذا المنظور يخرج أوس بن حجر من (المدرسة الأوسية) التي درج بعض الأدباء على اعتبارها نموذجاً لمدرسة جاهلية لها خصائصها في الشكل والمضمون والمنهج(١٠) ، فبدلاً من أن يكون

أعلام المدرسة الأوسية على النحو التالي : (أوس وزهير وكعب والحطيئة وجميل وكثير) يمكن أن يكون أعلام مدرسة الأسرة (الزهيرية) على النحو التالي : (زهير وبجير ، وكعب وعقبة والعوام وبشير والقريض والعوبثان وابن ميادة) لتواترهم في الرواية التي تستدعي وتستقطب مجموعة من الميزات والسمات ، وحتى اللهجة أو اللغة التي تنفرد بها بعض الأسر التي تنتمي إلى قبائل لها ميزات لغوية أو لهجية ، كالذي نجده من ميزات لغوية طائية في شعر أسرة (زيد الخيل) وأبنائه الشعراء (عروة والحريث والمهلهل)(١١) . ومادمنا في معرض الحديث عن خصائص شعر الأسر في إطار القبيلة يمكننا أن نشير إلى قبيلة (هذيل) التي سبق أن ذكرنا منها أسرة (أبي خراش) وأخوته التسعة الشعراء ، ونضيف إلى تلك الأسرة أسرة أخرى هي أسرة (أسامة بن الحارث الهذلي) وأخيه (مالك ابن الحارث) و(سهم بن أسامة بن الحارث الهذلي) و(إياس بن سهم) و(أمية بن عائذ) ابن أخي سهم ، وهاتان الأسرتان تتسمان في كثير من خصائصهما بالصفات التي يتصف بها أكثر شعراء قبيلة هذيل ، نتيجة وحدة التفكير النابعة من وحدة المصير ، ونتيجة المعطيات البيئية المتقاربة لدى كل أفراد قبيلة هذيل التي تنساح فوق حيز مكاني وزماني محددين . رب قائل يقول إن هذه الفروق الفنية والمحيطية وحتى اللغوية المتصورة بين القبائل التي أعطى شعراؤها مجموعة الشعر الجاهلي ، هي فروق متصورة ، وخصائص قبلية متخيلة ، ليس لها ما يعضدها في واقع الأمر ، ويؤيد هذا القائل رأيه الذي يذهب إليه بأن العرب في جاهليتهم كانت قبائلهم تلتقي حول الكعبة ، وتلتقي في الأشهر الحرم في عكاظ ، ويلقي شاعر كل قبيلة شعره على مسامع جمهور القبائل الأخرى ، بالإضافة إلى الرحلات التجارية ، ورحلات البحث عن طلب الكلأ والمرعى ومحافل السمر ، كل ذلك ذوّب الفروق الفردية من اللهجات المحلية ، والمعطيات البيئية ، وأصبحت الجزيرة العربية لغة شبه موحدة انصهرت فيها جميع الفروق التي كانت تتميز بها القبائل في إطاراتها المحدودة ، وعلى الرغم من تأييدنا لأكثر هذا القول فإن الفروق اللهجية بين القبائل ، وخاصة القصصية منها ، ظلت قائمة ، كما أن العقلية البدوية وما يحيط بها من معطيات تستمد منها تصورها ومقومات ذهنيتها تختلف عن العقلية الحضرية ، ولعله لهذا السبب ولتلك الفروق تنبه ابن سلام الجمحي عندما ألف كتابه (طبقات فحول الشعراء) فقسم الشعراء إلى شعراء الحاضرة فأفردهم عن شعراء البادية ، آخذاً بعين الاعتبار المعطيات البيئية وما تستتبعه من تصورات ذهنية وفنية ، ولعله أيضاً بسبب الفروق التي تفرضها طبيعة المحيط ، وما يتوضّع فيه من قبائل ، قسم شعراء الحاضرة إلى مكيين ومدنيين وطائفيين وبحرانيين ، وتميز قبائل النحلة اليهودية بفروق لا يكاد يدركها إلا المتمرسون ، جعل شعراء اليهود طبقة قائمة بذاتها . ويمكن أن تكون مثل هذه الفروق البسيطة التي تميز شعر كل قبيلة وتسود في معاني شعرائها وألفاظهم ، هي التي جعلت رجلاً كأبي سعيد السكري ينفق جهداً كبيراً في تصنيف الشعر على أساس قبلي ، فيجمع شعراً لأكثر من خمس وعشرين قبيلة . كل قبيلة على حدة ، ومثل هذا يقال عن أبي عمرو الشيباني الذي جمع وعمل ـ كما قال ابنه ـ شعر نيف وثمانين قبيلة(١٢) وأودعها في مسجد الكوفة ، كما أن محمد بن حبيب تناول

شعر القبائل من الناحية الشكلية ، فألف (متفق القبائل) و(مختلف القبائل) و(تسمية شعراء القبائل) و(فهرسة أسماء الشعراء في القبائل) و(كتاب القبائل الكبير والأيام) جمعه للفتح بن خاقان في نيف وعشرين جزءاً في كل جزء مئتا ورقة وأكثر(١٣) وغير ذلك . وكم تكون معرفتنا ثرية عن القبائل ، ولهجاتها وما يحيط بها لو أن مثل هذه المصنفات سلمت من عوادي الدهر فوصلت إلينا .

هناك أسرة شاعرة كبيرة أريد أن أقف عندها قليلاً ، لاعتبارات سنتبينها من خلال العرض ، وهذه الأسرة هي أسرة (آل أبي حفصة) وهي أسرة عرفت في التاريخ الإسلامي وتاريخ الشعر العربي منذ منتصف القرن الأول الهجري إلى منتصف القرن الرابع منه . وعميد هذه الأسرة رجل اسمه يزيد ، لم يكن عربياً صليبةً ، كما تتفق على ذلك أغلب الروايات ، وإن كان من بينها من يذهب إلى عروبة الرجل فإنه من قبيلة (عكل) العربية والأرجح أنه كان مولى لعثمان بن عفان ولكاتبه مروان بن الحكم ، فأعتقه مروان ، لنجابة كانت فيه ، وزوَّجه أم ولد كانت له اسمها (سكر) ولها من مروان بنت اسمها (حفصة) . فحضنها يزيد ، فعرف (بأبي حفصة) ومهما يكن من أمر الرجل فإنه وذريته وأحفاده قد صاهروا الأشراف من بني تميم وامتزجوا بصميم القبائل العربية ، واستوطنوا اليمامة في صميم الجزيرة العربية ، وتملكوا فيها ، وكثر عددهم ، فأصبحوا من أهلها .

وهنا أتصور أن مذكراً يذكّرني بأنني ابتدأت حديثي عن (الأسر الشاعرة) وقررت أن ظاهرة الأسر الشاعرة (يكاد) ينفرد بها الأدب العربي ، فها أنذا الآن استشهد بأسرة شاعرة ليست عربية الأصل ، فكيف يمكن التوفيق بين تلك الفكرة وهذه ؟ والجواب ينحصر في عدة نقاط :

١ ـ قلت إن هذه الظاهرة (يكاد) ينفرد بها الأدب العربي . ولفظة (يكاد) تسمح بأن تكون مثل هذه الظاهرة موجودة في غير الأدب العربي ، وإن كانت غير متوفرة فيه توفرها في الأدب العربي، وأردت من (يكاد) أن أتحدث عن ظاهرة في حدود علمي ، وفوق كل ذي علم عليم ، فقد تكون هناك ظاهرة مشابهة لها في آداب أمم أخرى لم يصل إليها علمي ، علماً بأنه كثر الحديث ، في هذا الزمن ، عن أسر في الغرب والشرق توارث أفرادها عبقرية الفن أو الاختراع أو الشعر أو المناصب المرموقة ، وواصل الخلف النبوغ الذي بدأ به السلف .

٢ ـ لو سلمنا أن عميد هذه الأسرة (أسرة آل أبي حفصة) كان مولى ، فنحن لا ننفي النبوغ عن الموالي ، ولا ننفي أن يورث هؤلاء النابغون ذراريهم شيئاً من نبوغهم . فهذه مسألة (بيولوجية) ـ سنناقشها بعد قليل ـ ولكننا عندما وصفنا الأدب العربي بأنه يكاد ينفرد بهذه الظاهرة ، عللنا ذلك بأن العرب محافظون ، إلى حد كبير ، على الأنساب ، ولذلك يبحث الباحث في هذه الظاهرة ، وهو مطمئن إلى أنه يضع قدمه على أرض صلبة ، قوامها نقاء النسب ، ووضوح الوراثة . والذي يقدر له أن يتحرى نسب هذه الأسرة يتضح له أن أفرادها امتزجوا امتزاجاً صميمياً بقبائل عربية عريقة مثل تميم كتزوج (يحيى بن أبي حفصة) من (أميرة بنت زياد بن هوزة بن شماس من بني أنف الناقة

من سعد بن زيد مناة من تميم) (وهي التي ولدت له ابنه جميلاً ، وقيل أيضاً أن يحيى تزوج بنت إبراهيم بن النعمان بن بشير الأنصاري ، ومعروف ما هو موقع إبراهيم وأبيه النعمان وجده (بشير) من الأنصار ، ويروون أيضاً أن يحيى هذا خطب من مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم بنتيه وأخته ، فأنعم له بذلك ، فبعث يحيى إلى بنيه فأتوه فتزوجوهن(١٤) ، وأن شريفة بنت المزلق بن قيس بن عاصم المنقري كانت زوجة لجميل بن يحيى وأما للمؤمل . ولنعد ، بعد هذا التوضيح الذي لابد منه ، إلى أسرة (آل أبي حفصة) فشيخ هذه الأسرة تزوج مولاة لبني عامرة ، فولدت له عدة أولاد هم : يحيى ومحمود وعبد الله وعبد العزيز . وذكر أبو الفرج الأصبهاني أن أم يحيى بن أبي حفصة هي (لحناء بنت ميمون من ولد النابغة الجعدي) ، وعقب أبو الفرج على ذلك بقوله : « وأن الشعر أتى آل أبي حفصة بذلك النسب »(١٥) وهذه إشارة مهمة جداً ، ولفتة علمية مبكرة ، تشير إلى انتقال الموهبة الشعرية بالوراثة . على كل حال إذا لم يكن الشعر قد انتقل لآل أبي حفصة عن طريق الأم ، فالأب وهو أبو حفصة كان شاعراً ، أورد له أبو الفرج في شعره في يوم (الدار) قوله :

وما قلت ، يوم الدار ، للقوم : صالحوا　　　أجل ، لا ، ولا اخترت الحياة على القتل
ولكنني قد قلت للقوم : جالدوا　　　بأسيافكم لا يُخلَصَنّ إلى الكهل

وجاء ابنه يحيى شاعراً ، قال عنه صاحب الأغاني : « ليحيى أشعار كثيرة ، وإنما ذكرناها هنا لتعرف أعراق مروان من الشعر . »(١٦) وننبه ـ هنا ـ إلى كلمة (أعراق) ومن شعره المذكور في الأغاني :

لا يصلح الناس إلا السيف إذ فتنوا　　　لهفي عليك ولا حجاج للدين
لو كان حياً غداة الأزد إذ نكثوا　　　لم يحص قتلاهم حسَّاب ديرين
لم تأته الأزد عند الباب تربصه　　　مثل الجراد تنـزّى بالتبابين

وليحيى هذا ولد شاعر غزل اسمه (جميل بن يحيى) يلقب بـ (قتيل الهوى) من شعره :

قلن : من ذا ؟ قلت : هذا اليما　　　مي ، قتيل الهوى أبو الخطاب
قلن : بالله أنت ذاك يقينا ؟　　　لا تقل قول مازح كذَّاب
إن تكن أنت هو ، فأنت منانا　　　خالياً كنت أو مع الأصحاب

ولجميل ولد شاعر غزل أيضاً اسمه (المؤمل بن جميل) من شعره :

ياأح من حر الهوى إنما　　　يعرف حر الحب من جربا
أصبحت للحب أسيراً فقد　　　صعدني الحب ، وقد صوبا
لاشك أني ميت حسرة　　　إن لم أزر ـ قبل غد ـ زينبا
تلك التي إن نلتها لم أبل　　　من شرَّق ـ الدهر ـ ومن غرَّبا(١٧)

ولو تركنا الشاعرين جميل بن يحيى ، وابنه المؤمل بن جميل ، والتفتنا إلى سليمان بن يحيى لوجدنا

له ولدين شاعرين أحدهما (مروان بن أبي حفصة) الشاعر المشهور ، وسنعود إلى سلسلة أولاده بعد قليل ، والثاني من أولاد سليمان اسمه (إدريس بن سليمان) ، وهو أديب شاعر ، له في الأدب كتاب عن (اليمامة)(١٨) وله في الشعر قصائد ذكر بعضها صاحب الحماسة البصرية ، وذكر بعضها صاحب الأغاني ، ومنها رثاؤه لإسحق بن إبراهيم الموصلي بقصيدة منها :

سقى الله يابن الموصلي بوابل   من الغيث قبراً أنت فيه مقيم
ذهبت فأوحشت الكرام ، فما ينى   بعبرته يبكي عليك كريم
إلى الله أشكو فقد إسحق ، إنني   ـ وإن كنت شيخاً بالعراق ـ يتيم

ولأبي الفرج الأصبهاني تعليق لطيف ، ذكره وهو يترجم لإدريس بن حفصة ، وهو تعليق ذو دلالة مهمة على أن السجايا والطباع وبعض السمات النفسية تخضع للوراثة ، يقول أبو الفرج : « إن إدريس هذا كان سخياً من بين آل أبي حفصة » فكأنه يريد أن يصف سخاءه بأنه شذوذ على القاعدة المضطردة في الأسرة وهي سجية البخل التي توارثتها الأسرة ، فهل يفهم من هذا القول أن السجايا والمواهب يرثها المرء من والديه كما يرث لون بشرته ولون شعره ولون عينيه ؟ هذا تساؤل سنطرحه للنقاش في الصفحات القادمة . ولنعد إلى الفرع الثاني من فروع سليمان ، وهو فرع ابنه مروان ، المسمى بـ (مروان الأكبر) وهو الشاعر العباسي المشهور (١٠٣ ـ ١٨٢) هـ ، يروى عن الأصمعي أنه قال : إن أهل بغداد قد ختموا به الشعراء(١٩) ، وقالوا : كان مروان موصوفاً بالبخل مع يساره وكثرة ما نال من الخلفاء من المال(٢٠) . ومن شعره النقدي الذي جعل النقاد يكبرونه قوله :

ذهب الفرزدق بالهجاء ، وإنما   حلو القريض ومره لجرير
ولقد هجا ـ فأمض ـ أخطل تغلب   وحوى النهى ببيانه المشهور
كل الثلاثة قد أجاد ، فمدحه   وهجاؤه قد سار كل مسير
ولقد جربت فقلت غير مهلل   بجراء لا قرف ولا مبهور
أني لآنف أن أحبر مدحة   أبداً لغير خليفة ووزير
ما ضرني حسد اللئام ، ولم يزل   ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

وخلفه في الشعر ابنه (أبو الجنوب : يحيى بن مروان) ، وشعره دون شعر أبيه جودة ، منه قوله يمدح (شراحيل بن معن بن زائدة) :

ما يجهل الناس من أمر فقد علموا   أن ابن معن : شراحيلاً فتى العرب
أعطى أبوك أبي ، قدماً وموّله   فأعطني مثل ما أعطى أبوك أبي
ما كان يقدم من أرض يكون بها   إلا أتانا بأوقار من الذهب(٢١)

ثم خلفه ابنه (مروان الأصغر) وكان يكنى (بأبي السمط) ، وقد عاصر من خلفاء بني العباس

المأمون والمعتصم والمتوكل والواثق ، وأخذ جوائزهم ، ومن جميل شعره أبيات له من قصيدة في نجد يقول فيها :

سقى الله نجداً ، والسلام على نجد   وياحبذا نجد على النأى والبعد
نظرت إلى نجد ، وبغداد دونها   لعلي أرى نجداً ، وهيهات من نجد
ونجد بها قوم ، هواهم زيارتي   ولاشيء أحلى من زيارتهم عندي(٢٢)

ولمروان هذا ولدان شاعران ، أحدهما السمط بن مروان ، والآخر محمود ، أما السمط فقد قال في عياش بن حنيفة الخثعمي اليمامي :

تعيشت ياعياش من فضل كسبهاوعدت   سمينا بعد طول هزالكا

يعاتبني عياش ألا أعوده   فأهون به حيا علي ، وهالكا
وإني لاستحيي من الناس كلهم   ومن خالقي من أن أرى بفنائكا

والثاني هو (محمود بن مروان الأصغر) ويكنى بأبي مروان له شعر أشهره قوله :

لي حيلة فيمن ينم   وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقو   ل فحيلتي فيه قليلة

ويذكر أبو الفرج أن هذه الأسرة الشاعرة انتهت بـ (متوج) وكان ساقطاً بارد الشعر ، وهنا نلتقي بتعقيب آخر لطيف يسوقه أبو الفرج عن أبي هفان ، وهو تعقيب ذو دلالة مهمة أيضاً في اضمحلال ملكة الشعر من جيل إلى جيل في الأسرة الواحدة ، قال أبو هفان : « شعر آل أبي حفصة بمنزلة الماء الحار ، ابتداؤه في نهاية الحرارة ، ثم تلين حرارته ثم يفتر ، ثم يبرد ، وكذا كانت أشعارهم ، إلا أن ذلك الماء لما انتهى إلى (متوّج) جمد »(٢٣) . فهل عنصر الوراثة والاستعداد الشعري هو الذي يدركه التلاشي والاضمحلال من جيل إلى جيل ؟! سنرى .

لمزيد من التعرف على الأسر الشاعرة يمكننا أن نلتقي بأسرة عريقة في الشعر ، هي أسرة الشاعر (النعمان بن بشير) فأبوه (بشير بن سعد) كان شاعراً وعمه (الحسين بن سعد) كان شاعراً أيضاً ومن قبله جده (سعد) كان شاعراً أيضاً ، وبشير تزوج أخت (عبد الله بن رواحة) الشاعر الصحابي ، فجاءه الإرث الشعري من مصدرين : من الأبوة والأمومة ، ونعرف أن للنعمان ابن بشير أخاً اسمه (إبراهيم بن بشير) كان شاعراً ، أما أولاد النعمان فهم (عبد الله بن النعمان) شاعراً ، وبنته (حميدة بنت النعمان) شاعرة ، وابنه يزيد خلّف (شبيب بن يزيد) وهو شاعر ، أما ابنه الآخر (عبد الواحد) فقد وُلِد له ولدان شاعران مجيدان أحدهما (عبد الخالق) والثاني (عبد القدوس) وكلاهما حفيد للنعمان بن بشير .

ولو تركت التفاصيل التي أخشى أن تجر إلى الملل لوجدت أسرة كأسرة (عبد المطلب بن هاشم) التي تتابع أبناؤها الشعراء ، وخاصة أولاد أبي طالب . وأسرة كأسرة (عمرو بن الحارث) والد الخنساء الشاعرة وأخويها الشاعرين : صخر ومعاوية ، وأولادها من عبد العزّى ومرداس ، كلهم شعراء ذكوراً وإناثاً (كعمرة بنت مرداس) ، وأحفادها (كسهم بن عباس) وابنه (أبو بلال) كلهم شعراء . هناك أسرة كبيرة قدمت للشعر العربي مجموعة من الشعراء أحب أن أتوقف عن استعراض الأسر الشاعرة عندها، وهي التي سبق أن أشار إليها ابن قتيبة فجعلها إحدى أسرتين ما اتصل الشعر في ولد أحد من الشعراء مثل ما اتصل فيهما، الأولى في الجاهلية: هي أسرة زهير، والثانية في الإسلام وهي أسرة جرير. فشيخ هذه الأسرة يسمى (الخطفى) وهو شاعر جاءته هذه التسمية من لفظة في بيت شعر قاله، وقد ترك هذا الشيخ ولدين أحدهما عطية والآخر عطاء، وعطاء خلف (أبا الزحف) وهو شاعر معروف، وعطية هو والد (جرير) وله غير جرير ولدان أحدهما عمرو والآخر أبو الورد، وأولاد جرير كثر، كلهم شعراء على تفاوت في الشاعرية بينهم، (فنوح وعكرمة) كانا مقلين، ومثلهما (حجناء والعلاء) وبنته (ربداء)، شاعرة وأما (بلال) فإنه أفضلهم وأشعرهم، وهو والد الشاعر (عقيل بن بلال) صحيح أنه شاعر مقل أيضاً، ولكن ولده (عمارة بن عقيل) كان شاعراً معروفاً محسناً وراوية مرموقاً، أدرك العصر العباسي، وهو والد (كسيب ابن عمارة) الذي ولد له ولدان شاعران: مسحل وأيوب وهناك مجموعة من أولاد جرير وبناته (حكيم وموسى وسوادة، وحزرة وجعادة وحيلة وموفية وأم غيلان) وهذه الأخيرة كانت راوية لأبيها .

والحقيقة أننا نريد أن نقف قليلاً عند أسرة جرير لأنها تعطينا عدة مؤشرات ذات صلة بالسجايا والطباع التي توارثتها الأسرة ، فعدا عن موهبة الشعر التي تنقلت فيهم تلفت نظرنا في سلوكهم ظاهرة البخل ، فكل الكتب التي ترجمت لأعلام هذه الأسرة نقلت عن شيخها (الخطفى) أنه كان يرمى بالبخل(٢٤) ، وأن ابنه عطية كان يوصف بالشح(٢٥) ، حتى أنه كان يبخل على ابنه ، فمما ينسب لجرير أنه قال شعراً مشيراً إلى هذه الظاهرة حيث يقول(٢٦) :

فأنت أبي مالم تكن لي حاجة   فإن عرضت أيقنت أن لا أبا ليا
وإني لمغرور أعلل بالمنى   ليالى أرجو أن مالك ماليا

وتنقل كتب الأدب أن ثمة ظاهرة سلوكية أخرى كانت تطبع أفراد الأسرة ، وهي العقوق ، فأبو الفرج يقول : كان جرير من أعق الناس بأبيه ، وكان ابنه بلال أعق الناس به ..(٢٧) كما كانت في الأسرة نزعة عدوانية تتمثل برغبتهم في مهارشة أناس زمانهم وابتدائهم بالعداء يتمثل هذا في الشعر على شكل هجاء برعت فيه الأسر ، وحفلت به دواوين شعرائها ، فابن قتيبة يقول عن جرير : « وكان من أشد الناس هجاء ... أخبرنا شيخ من أهل البصرة قال : مر (راعي الإبل) في سفره فسمع إنساناً يتغنى على قعود له بشعر جرير :

وعاوٍ عوا من غير شيءٍ رميته   بقافية أنفاذها تقطر الدما
خروج بأفواه الرواة كأنها   قرا هندواني إذا هز صمما

فقال : لمن هذا ؟ قيل : لجرير ، فقال الراعي : لعنة الله على من يلومني أن يغلبني مثل هذا(٢٨) . أما تصديه لشعراء عصره كالفرزدق والأخطل وغيرهما فهو أكثر من أن ندل عليه بشاهد ، ومناقضته لهما استفاضت بها كتب الأدب والمحافل الأدبية وقد ورث ابنه (بلال) هذا النزعة العدوانية ، فهجا قوماً من بني فقيم بقصيدة رائية ، وهجا حماد المنقري ، وهجا مسعود بن طعمة من بني بيدعة ، فقال :

أمسعود أنت اللئيم الأثيم   كأنك قنفذة في ضعة
سمعنا له إذ نزلنا به   كلاما كما تنطق الضفدعة
فأي اللئيمين أشبهته   أطعمة أم أمك الكوتعة
عددنا عديا وآباءهم   فشر عدي بني بيدعة
فما أعطش الضيف لما غدا   من البيدعات وما أجوعة

وتنحدر الروح العدوانية من جرير وابنه بلال إلى الحفيد عمارة بن عقيل الذي اشتهر بين شعراء العصر العباسي بكثرة هجائه ، ونماذجه كثيرة منها هجاؤه بني كلاب(٢٩) ، وقد يقول قائل إن شعر الهجاء ظاهرة عامة وغرض فردي وليس طابع أسرة ، هذا صحيح ، ولكن أن يطغى شعر الهجاء على ديوان الشاعر حتى يملأ أكثره ثم تنحدر هذه الخاصة إلى أولاده أيضاً فتغدو السمة العامة الغالبة على أشعارهم ، فهذا الذي يسمح لنا أن نفسر غرض الهجاء عند هؤلاء الشعراء على ضوء من المنزع النفسي المتمثل بالنزعة العدوانية المتوارثة عند هؤلاء .

كنت على وشك الانتهاء من استعراض الأسر الشاعرة ، على الرغم من أن الذي لم أعرضه منها أكثر بعشرات المرات مما عرضته ، ولكنني أحب أن أختم استعراضي للأسر بحديث مقتضب عن أسرة صغيرة ، إلا أنها ذات لون خاص ، تختلف عن سائر الأسر التي عرضناها ، فهي تلتقي معها في الشاعرية ولكنها تختلف معها في اللون الشعري الذي طرقته ، وهذا اللون هو لون (الرجز) ومن المعروف عند دارسي الأدب أن الرجاز يؤلفون طبقة من الشعراء ينظر إليها الأدباء والنقاد نظرة غير تلك التي ينظرونها إلى شعراء القصيد ، وليس هذا مكان التفصيل في هذه القضية ، والطريف في هذه الأسرة أنها تؤيد ، من جهة ، ظاهرة توارث الأسر لفن الشعر ، وتؤيد ما هو أعمق من ذلك ، أن الموهبة المتوارثة هي موهبة محصورة في (فن الرجز) . وشيخ هذه الأسرة (العجاج بن رؤبة) من قبيلة تميم الذي قيل إنه ولد في الجاهلية ، واستمرت به الحياة حتى خلافة الوليد بن عبد الملك ، وهو والد الرجاز المشهور (رؤبة بن العجاج) الذي قيل إنه فاق أباه في هذا الضرب من النظم ، وكانت أراجيزه وأراجيز أبيه مستودعاً للغة الغريب ، ولهذا قال الخليل بن أحمد بعد جنازة رؤبة : « دفنا اللغة والفصاحة

والبلاغة اليوم »(٣٠) وقد خلفهما في هذا الفن الحفيد (عقبة بن رؤبة بن العجاج) وقد كان رجازاً موهوباً ، ونكتفي بالتلميح إلى هذه الأسرة وإلى تخصصها الدقيق في فن هو (فن الرجز) .

من خلال استعراض بعض هذه الأسر وتعداد بعضها الآخر أحسب أن الصورة أصبحت واضحة جلية ، ولكن الذي يهمنا أكثر من توضيح الصورة وجلائها هو تفسير هذه الظاهرة . واعتقد أن مهمة هذا البحث تفسير هذه الظاهرة ، وأنه منوط به أن يجيب عن التساؤل المطروح لتفسيرها وهو : هل مرد نبوغ الشعراء وتتاليهم في الأسرة الواحدة إلى عامل الوراثة أم إلى عامل المحيط أو البيئة التي فرض على الشاعر ظروفاً معينة جعلته يكتسب شيئاً كثيراً من تقاليد حرفة الأدب وخصائص فن الشعر ؟ هذه الثنائية : الوراثة والاكتساب هي المرشحة للإجابة عن هذا السؤال ، وفيها يكمن تفسير هذه الظاهرة .

ولنأخذ العنصر الأول من هذه الثنائية وهو عنصر الوراثة ، ولنسأل أولاً علماء العرب ما هي معلوماتهم عنه لعلنا نجد لديهم ما يمكننا من تفسير الأسر الشاعرة على ضوء من معرفتهم لعلم الوراثة ومع أننا نقول إن إيمان العرب بالوراثة كبير ، ولكن معلوماتهم فيها لا تعدو علم الفراسة والقيافة وعلم الأنساب ، واهتموا بالعلم الأخير اهتماماً شديداً ، حتى تجاوزوا في هذا العلم أنساب الإنسان إلى أنساب الخيل والإبل ، ولهذا يهتمون عند الزواج بعراقة نسب البنت ، لأنهم يعتقدون أن العرق دساس ، ويروون القول المأثور وهو قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » . والحقيقة التي يؤسف لها أن معلومات العرب عن علم الوراثة معلومات ضحلة لا تعطي إلا صورة باهتة لمفهوم الوراثة ، لا تعدو أن تكون مجموعة من الحكم والأمثال تشير إشارات سريعة إلى الوراثة ، منها قولهم : « الولد سر أبيه » و« العرق دساس » و« من شابه أباه فما ظلم » .

و« لا تخطبن إلا كريمة معشر   فالعرق دساس من الطرفين »

وقولهم : « فرخ البط عوام » وقول شاعرهم :

أفعال من تلد الكرام كريمة   وفعال من تلد الأعاجم أعجم

وقولهم : « لا تسترضعوا الحمقاء فإن اللبن ينزع بالشبه إليها .. » إلخ : لهذا سنتوجه إلى الدراسات الحديثة في علم الوراثة ، لأنها دراسات علمية تجريبية نستطيع أن نطمئن إلى كثير من النتائج التي انتهت إليها : فماذا تقول الدراسات الحديثة في علم الوراثة لتفسير ظاهرة الأسر الشاعرة ؟؟

إن النتائج العلمية التي قدمها لنا علم الوراثة في منتصف القرن التاسع عشر تؤكد على أن الخصائص الفيزيولوجية أو الجسمية هي وحدها التي تنتقل بالوراثة ، إذ إن إسهام الوالدين في إنتاج البويضة المخصبة ، وهي المشيج الذي يربط الأجيال المتعاقبة ببعضها ، إنها تمثل الجسر الوحيد الذي

تعبره الصفات المتوارثة من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة ، فتلكم البيضة المخصبة تحمل في ثناياها كل الصفات التي تميز الكائن الجديد من طول أو قصر في القامة ، وبياض أو سواد في البشرة ، وشقرة أو زرقة في لون الشعر ولون العيون ، وصمت علم الوراثة القديم عن الحديث في انتقال الخصائص النفسية للكائن الحي ، والحقيقة أننا نلتمس العذر لعلماء الوراثة القدامى لسكوتهم عن الخوض في مشكلة انتقال الخصائص النفسية بالوراثة ، ذلك لأن التجارب التي قام بها علماء الوراثة كمندل ومورغان كان ميدان التجربة الوراثية عندهم هو عالم النبات وعالم الحيوان دون عالم الإنسان فلهذا جاءت نتائجهم منصبة على الخصائص الفيزيولوجية لا الخصائص السيكولوجية ، التي عرى عن مثلها عالم النبات والحيوان . ولم يطل انتظارنا حتى طلعت علينا دراسات (جولتون) في الوراثة ، وخاصة عندما نشر كتابه سنة ١٨٦٩م بعنوان (العبقرية الموروثة) ، Hereditary Genius ، وقد جعل فئة (العبقرية) واسعة إلى حد غير قليل ، إذ جمع مجموعة كبيرة من سلاسل نسب رجال حققوا (شهرة) في مختلف ميادين النشاط من سياسيين ومشرعين وعلماء وشعراء ورجال دين وقادة عسكريين وبحريين وهلم جرا ، وقد وجد في كل الأحوال أن معدل الوصول إلى الشهرة يزيد كثيراً بين أسلاف وأقارب هؤلاء الأشخاص عنه بين عامة الشعب أو سواد الناس ، واستنتج (جولتون) من ذلك أن الطبيعة وهو ما يمكن أن نسميه الآن بالنمط الجيني أهم كثيراً في تطور القدرات البشرية من التنشئة أو ما يسمى بالاكتساب من البيئة .

والواقع أن العقبة التي أعاقت الدراسات العلمية لسمات الشخصية وللسجايا الإنسانية هي صعوبة قياس هذه السمات على نحو موثوق به . وإنك لتجد مثل هذه الآراء عن الوراثة موغلة في القدم منذ عهد أرسطو : يتداولها العلماء جيلاً بعد جيل ، إلا أنها كانت آراء نظرية دعامتها المشاهدة دون التجريب ، حتى اخترع المجهر الذي تمكن العلماء فيه من دراسة الخلية التي وظيفتها تنظيم نقل الصفات الوراثية إلى الجيل الجديد .

على أن الملاحظ أنه إذا كان الوالدان على حظ من النبوغ والذكاء فإن الغالب أن يكون الأولاد الذين ينسلونهم على مثل حظهم من النبوغ ، وبالمثل إذا كان الوالدان قد تميزا بغباء وخمول ، فإن الغالب أن يكون أولادهما لهم مثل حظ أبويهما من هذه الناحية . وقرأت منذ فترة وجيزة كلمة للأديبة الفرنسية الشهيرة (جورج صاند) تقول فيها : « الوراثة تلون الشخصية إلى حد بعيد ، فإذا شاء قرائي أن يفهموني فليعرفوا شيئاً عن أبي وأمي » ثم توالت مجموعة من الدراسات في أواخر القرن التاسع عشر في علمي الوراثة والطباع تؤيد دراسة الخصائص النفسية والفنية ، فهذا (سبنسر) ومريدوه من أمثال (مورغان) و(مكدوكال) و(بنيه) يصرحون بأن الذكاء قدرة عامة وموروثة .

وفي دراسة لـ (دولاكروا وبرغسون) عن شروط قيام الشاعر ، يحددان قيام الشاعر بأربعة شروط (الحساسية الخاصة ، والقدرة الانطباعية ، والقدرة الفائقة على البناء ، والقدرة الفائقة على

الحدس) ، ويرجعان هذه القدرات إلى الموهبة الموروثة . ويذهبان إلى أن وراثة الطفل لا يحددها الآباء المباشرون فقط ، بل أن المرء يرث جدوده الأقدمين أيضاً .

قد تكون الموروثات في خاصة من الخصائص النفسية أو الفنية موجودة في إنسان ما . وإن لم تظهر نتائجها ، فإنها كامنة عفوياً ، وقد تكون مكبوتة لأسباب اجتماعية ، أو ضعيفة ضعفاً لا يسمح لها بالظهور ، وتستمر بالكمون تنتظر الفرصة المواتية ، حتى تزول عنها الرقابة الشخصية أو القيود الاجتماعية ، أو تقيّض لها عوامل القوة . فتبرز . وعوامل القوة هنا مكتسبات محيطية كالثقافة والتعليم والخبرات الرافدة ، فتنطلق بعد هذا الكمون معبرة عن ذاتها ، وقد لايقيض لها مثل هذه العوامل فتميل الموروثات إلى الضمور وربما إلى التلاشي والاضمحلال . وإني لأستميح القارىء العذر عن الإمعان في أساسيات علم الوراثة ، إمعاناً يكاد يقربنا من جفاف العلم ، وينأى بنا عن بهجة الأدب ، ولكن طبيعة بحثنا هذا تضطرنا إلى ولوج ميدان العلم . ولكي نفي الموضوع حقه لابد من التعريج مرة أخرى على علم الوراثة لنقف عندما يسمى بالصبغيات (الجينات) وحصراً عند موروثات الفن والشعر بالتحديد ، فمن المسلم به عند علماء الوراثة أن الجينات لا تورث المرء ملكة الشعر كاملة ، وإنما تورث المرء الاستعداد الفني فتهيئه لأن يكون شاعراً . ثم يأتي دور المحيط والاكتساب ورحلة العمر الطويلة فتنمي هذا الموروث وتعمقه وتصقله وإذا كانت يدنا قاصرة عن التحكم في الصبغيات الوراثية فهي قادرة على التحكم في ظروف المحيط والخبرة المكتسبة التي تدعم البذرة الموروثة ، ولعل على رأس العوامل المكتسبة في ميدان الشعر هي ظاهرة (الرواية) التي نخصها بشيء من الحديث . وللرواية في اللغة العربية معان كثيرة ، بعضها حقيقي وبعضها مجازي ، ولسنا بحاجة إلا لمعنى واحد منها وهو المعنى الذي يلزمنا عندما نتحدث عن (الراوية) ، والراوية ـ بهذا المعنى الذي نقصده هو ذلك الإنسان الذي يوكل إليه حفظ ما انتجته قريحة شاعر آخر ، ثم إعادة تلاوة ما حفظه الراوي إذا اقتضت الظروف ذلك ، ولهذا يشترط في الراوية قوة الحافظة وقوة الاستحضار ، أو قوة الذاكرة وقوة التذكر . ومعلوم أن الراوية قد قام بدور مهم جداً في حفظ التراث القديم في مجتمع تغلب عليه الأمية ، طوال فترة شيوع الأمية ، وما تخلى الراوية عن دوره هذا إلا في فترة لاحقة عندما شاعت الكتابة ونشطت حركة التدوين ، وانتقل مافي الصدور إلى السطور .

والذين قدر لهم أن يطلعوا على الشعر الجاهلي أدركوا أنه يكاد يكون لكل شاعر منهم راوية ، فمهمة الشاعر تنحصر في إنتاج الشعر ، ومهمة الراوي حفظ شعره وإعادة قراءته في محافل معينة ، فكنا نسمع أن الأعشى ـ مثلا ـ راوية خاله المسيب بن عَلَسْ ، وأن بلال بن أبي بردة راوية حاتم الطائيّ ، وأن زهيراً راوية طفيل الغنوي ، وقد يتسلسل الرواة ويتتابعون فيشكلون مدرسة روائية ـ إن جازت هذه التسمية ـ مثل هذا ما نجده في سلسلة رواة المدرسة الأوسية ، فشيخ هذه المدرسة أوس بن حجر ، كان راويته زهير بن أبي سلمى ، وكان لزهير راويتان ابنه كعب وتلميذه الحطيئة ، وقد روى للحطيئة أكثر من راو لعل أشهرهم هدبة ابن خشرم ، ثم روى شعر هدبة الشاعر الغزل جميل ، وكان الشاعر

الغزل الآخر كثير راوية لجميل ، وخُتمت هذه السلسلة بالسائب بن زكوان ، فكان راوية لكثير ، وربما لاحظنا من خلال استعراض هذه السلسلة من الرواة أنها تجاوزت حقبة العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي واضمحلت في أواخر العصر الأموي ، ويترتب على هذه الملاحظة نتيجة مهمة سنبينها بعد قليل ، ولعل المهمة الأولى للراوية ـ كما أشرنا ـ تنحصر في كونه مستودعاً للشعر ، ولكن الشعراء الفحول المنتجين درجوا على اختيار رواتهم من الذين يجمعون بالإضافة إلى قوة الذاكرة الموهبة الشعرية ، ولما كان الرواة شديدي الالتصاق بالشعراء المنتجين ، وكانوا بحكم ما أنيط بهم من عمل يظلون على مقربة من العملية الشعرية ، كان من البديهي أن يصبحوا مرشحين لأن يكونوا شعراء في قادمات الأيام ، وهذا ما لاحظناه من الكثرة الكاثرة من الرواة الذين تحولوا إلى شعراء فالراوية يبدأ في ميدان الشعر هاوياً ثم يتحول محترفاً ، فكأن عمل الرواية رفد الموهبة الشعرية الموروثة لدى الراوية فيتضافر العنصراان : الموهبة والمكسوب أو الموروث والمكتسب على تقديم شاعر منتج جديد ، وكأني بالراوية لا يعدو أن يكون شاعراً صغيراً متدرباً يعد بشاعرية خصبة ، ولذا يعمد فحول الشعراء إلى اصطفاء بعض أبنائهم الذين يلمحون فيهم المواهب الشعرية لمهمة الرواية ، كالذي صنعه زهير بن أبي سلمى مع ابنه كعب ، وقد ذكر لنا أبو الفرج الأصفهاني قصة تدريب زهير لابنه كعب تدريباً لا يخلو من قسوة تهدف إلى إحكام الصنعة ، وتهدف إلى إكساب المتدرب ضروباً من تقاليد المهنة . تقول الرواية إن زهيراً عندما أنس في ابنه كعب الرغبة الملحة في قول الشعر ـ وكان راويته ـ دعاه وأردفه وراءه على ناقة ، وأحب أن يختبره ، فقال زهير :

وإني لتعديني على الهم جسرة   تخب بوصال صروم وتعنق

ثم ضرب كعباً ، وقال له : أجز يالكع ، فقال كعب :

كبنيانة القرئ موضع رحلها   وآثار نسعيها من الدَّف أبلق

فقال زهير :

على لا حب مثل المجرة خلته   إذا ما علا نشزا من الأرض مهرق

ثم ضرب كعباً وقال له أجز يالكع ، فقال كعب : ... إلخ

ثم قال زهير ... فأجاز كعب ... ثم قال زهير ... فأجاز كعب(٣١) . ثم انتقل زهير من وصف الإبل إلى وصف النعام ، وهو يقول البيت وابنه يتمم المعنى ببيت آخر ، فلما أنس زهير في ابنه القوة ، أخذ بيده ، ثم قال : قد أذنت لك يابني في الشعر ... إلخ القصة ، وليس لنا من تعليق عليها إلا أن زهيراً لم يثق ـ فقط ـ بما عند ولده من موروث شعري وإنما استمهله حتى أضاف إلى هذا الموروث شيئاً غير قليل من المكتسبات التي من شأنها أن تصقل موهبة الفنان وتجود مهارته .

والحقيقة أن عملية الرواية هذه ستترتب عليها نتائج مهمة نلمسها في تاريخ الأدب العربي منها :

١ ـ استمرار النمطية المنهجية في نظم القصيدة العربية ، كوصف الأطلال ووصف الرحلة والراحلة كمقدمات للغرض الأساسي ، واعتقد أن المحافظة على هذه النمطية قد ترسخت بفعل الرواة لأن كل واحد منهم ـ كما في المدرسة الزهيرية ـ كان يجب عليه أن يعرف رسوم القصيدة قبل أن يتصدى لقول الشعر ، فهو يتسلمها من شيخه ويسلمها لتلميذه ، ولهذا استمرت تقاليد القصيدة الجاهلية طوال فترة النقل والرواية حتى جاء عصر التدوين فبدأ منهج القصيدة القديم يتزعزع على يد أبي نواس وأضرابه من الذين ثاروا على هذه النمطية المنهجية .

٢ ـ وبفعل توالي الرواة ، وخاصة في الأسر الشاعرة ـ استمرت خصائص أخرى للقصيدة القديمة ، فظلت وحدة البيت هي المسيطرة على عقلية الشعراء ، ولم تحتل وحدة القصيدة مكانها إلا في وقت متأخر جداً .

٣ ـ ساعدت الرواية على استمرار سيادة لهجة وسط الجزيرة العربية أو لهجة الخط الوهمي ما بين نجد والحجاز أو كما سماها بعض الدارسين (لغة عكاظ) ، هذه اللهجة العربية هي التي نقلها الرواة إلى خارج الجزيرة العربية ، ونقلوا معها الصور التي حفل بها الشعر القديم .

٤ ـ وبفعل الرواة وقيامهم بدور الخضرمة بين عصرين لم تقع في العصر الإسلامي مثلاً ـ على خصائص للعصر اللاحق تختلف كلية عن العصر السابق ، فلهذا ضؤلت الخصائص الفنية بين عصر وآخر ، وغدت حركة التطور والتجديد ضئيلة وهذا ما جعل بعض الدارسين يسم الشعر العربي بالمحافظة الشديدة على خصائصه وتقاليده .

وخلاصة كل ما تقدم تؤدي بنا إلى التعرف ثم الاعتراف بالأسر الشاعرة بوصفها ظاهرة شعرية ذات وزن كبير ، ونستطيع أن نفسر النبوغ الشعري على ضوء من تضافر العنصرين الأساسيين معاً : عنصر الوراثة وعنصر الاكتساب .

وإذا لم يكن بد من ترجيح أحد هذين العنصرين فإنني ، على الرغم من إيماني بالنظرية التربوية ، وآراء رجال علم الاجتماع الذين يولون أهمية كبرى لعامل الاكتساب المتمثل في البيئة والمحيط الاجتماعي ، وبالعوامل التثقيفية والتعليمية والتدريبية ، أقول ، على الرغم من إيماني بكل هذا ، فأنا أشد إيماناً بالدور الذي يقوم به عنصر الوراثة ، إذ لا قيمة للعوامل المكتسبة إذا طبعناها على نفس خالية من الموهبة ، فصنيعنا هذا صنيع من يجلب أحسن الغراس والبذور ليزرعها في أرض سبْخَةٍ أو على صخرة صماء .

إنني أشد ميلاً إلى رأي علماء الوراثة الذين يقولون : « إن نواة التمر هي نخلة كاملة كامنة في النواة » . فإذا كانت النواة نخلة من نخل الزينة فمن العبث أو حتى المستحيل أن نلتمس منها في قادمات الأيام رطباً جنياً ، مهما كانت يد المؤبر صناعاً . ومن هذه الرؤية نستطيع أن نقول إن النطفة البشرية

تشتمل على جميع مقومات الإنسان المكتمل ، إن الوراثة مجرد بداية للوجود وليست الوجود نفسه ، فهي تشبه « عود الثقاب ساعة اشتعاله » ، أما الحريق الهائل الذي ينجم عن اشتعال عود الثقاب وقد امتدت النار منه إلى الأشياء فإنه لم يكن موجوداً بدخيلة رأس عود الثقاب ساعة اشتعاله » . فبينا تشبه الوراثة بعود الثقاب فإننا نشبه البيئة بالمواد التي تقبل الاشتعال والتي تلاصق رأس عود الثقاب ساعة اشتعالها ■

● الحواشي ●

(١) برز في الآداب والفنون الأجنبية أسر محدودة مثل أسرة (سيتول Sitwell) فالأخوة : ايديث وساسفرل وأوزبرت كانوا أدباء وشعراء ترعرعوا في شمالي انجلترا في مقاطعة (دربشير) ، وكذلك أسرة (برونتي) الأخوات الشهيرات اللواتي شهرن في أدب القصة في القرن التاسع عشر ، وفي الفن أسرة الموسيقار (باخ) فمن هذه الأسرة (٥٧) موسيقاراً ألفوا قطعاً موسيقية ، خلد منهم (٢١) موسيقاراً ، منهم (جان سيستيان باخ) الموسيقي المشهور .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ١٥٧ .

(٣) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ، المجلد الثاني ـ الجزء الأول ص ٥٦ .

(٤) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ، المجلد الثاني ـ الجزء الأول ص ٦٣ .

(٥) مثل دراسة الدكتورة وفاء السنديوني لشعر طيء ، ودراسة الدكتور حسن أبو ياسق لشعر همدان وغيرهما .

(٦) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ، المجلد الثاني ـ الجزء الأول ص ٦٦ ـ ٧٠ والمجلد الثاني ـ الجزء الثاني ص ٢٥٥ ـ ٢٦٠ .

(٧) آمالي المرتضى ٢/١١٠ .

(٨) آمالي المرتضى ٢/١١٠ .

(٩) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٧٦ .

(١٠) كتاب في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين .

(١١) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين المجلد الثاني ـ الجزء الثاني ص ٢٠١ .

(١٢) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين المجلد الثاني ـ الجزء الأول ص ٦١ .

(١٣) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين المجلد الثاني ـ الجزء الأول ص ٦٥ .

(١٤) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٨٠ صفر ١٣٨٧هـ أيار ١٩٦٧م .

(١٥) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٧٦ صفر ١٣٨٧هـ أيار ١٩٦٧م .

(١٦) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٨١ صفر ١٣٨٧هـ أيار ١٩٦٧م .

(١٧) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٨٢ فيما بعد صفر ١٣٨٧هـ أيار ١٩٦٧م .

(١٨) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء ٨ ص ٦٩٠ و٦٩١ نقلاً عن الأغاني للأصفهاني ٥/١٢٢ .

(١٩) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء الثامن ص ٦٨٣ صفر ١٣٨٧هـ أيار ١٩٦٧م .

(٢٠) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء الثامن ص ٦٨٢ صفر ١٣٨٧هـ أيار ١٩٦٧م .

(٢١) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء الثامن ص ٦٨٩ صفر ١٣٨٧هـ أيار ١٩٦٧م .

(٢٢) مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السنة ١ الجزء الثامن ص ٦٨٧ .

(٢٣) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ١٢/٧٢ .

(٢٤) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ١٢/٥١ .

(٢٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٣٩٨ .

(٢٦) ويقال إنه كان يشرب الحليب من ضرع العنزة حتى لا يسمع أحد صوت الحلب فيطلب منه الحليب .

(٢٧) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ٨/٧٤ طبعة دار الكتب المصرية .

(٢٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٣٧٧ .

(٢٩) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ١٣/١٨٦ .

(٣٠) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين المجلد الثاني ـ الجزء الثالث ص ٨٦ . نقلاً عن الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ٢١/٩١ .

(٣١) مقدمة ديوان كعب بن زهير ص ٦ .